تقديم
بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

من قديم الزمان ، كان تقديس الحياة الأخرى ــ أو تقديس غروب الروح فى العالم الآخر ــ أدبا مأثورا عن المصريين الاولين . ومن بواكير عصر التاريخ ، كان كبير آلهتهم « اوزوريس » موكلا بالشمس الغـــاربة والشموس الغاربين ، ومن هـــذه الشموس نيران آدميـــة كانت تنير ، وطلعات كانت تطلع ، وقلوب كانت تشع فى حرارتها وميض الحياة

لقد كان جميلا بأولئك الاولين أن يستقبلوا الشمس الغاربة ، فما فى استقبال الشموس الطالعة من نخوة نادرة فى طبائع الأحياء ، وكان جميلا منهم أن يزدان شاطئهم الغربى بأعظم الهياكل ، وأخلد الآثار ، فحسب المطلع الشرقى من زينتـــه انه قبلة الناظرين ، وانه غنى عن استقبـــال الذاكرين

يقول كونفشيوس حكيم الصين : « معاملتنا الموتى كأنهم موتى ، ولا شىء غير ذلك ، فقدان للعطف والوفاء ، ومعاملتنا الموتى كأنهم أحيـــاء ولا شىء غير ذلك ، فقدان للعقل والحس .. فلا هذا ولا ذاك ، ولكنه قوام بين الأمرين »

أبنـــاء الشرق جميعا ــ على ما ظهر لنا ــ عارفون بحق الغروب فى العالم الآخر ، عارفون بحق الغاربين .. فهم لا ينســـونهم كأنهم ميتون ولا شىء ، وهم لا ينافسونهم كأنهم أحياء ولا شىء ، ولكنهم يذكرونهم ويعفونهم من صراع المنافسة بين الأحياء . وعلى هذه السنّة درجت

حضارة الشرق البعيد ، وعليها فى هذه الرقعة من الارض درجت حضارة وادى النيل

نعم .. وعلى هذه السنّة ، جرى زميلنا الأديب المؤرخ «طاهر الطناحى» فى كتابه « الساعات الأخيرة » أو « ساعات الغروب » . فهو من سطره الأول الى سطره الأخير وفاء للشموس الغاربة ، وذكرى للأيام الذاهبة ، وهو فى لبابه شريعة مصرية يباركها الأولون والآخرون . ولو لم يكن فيه الا انه جزاء كريم لمن كف الموت أيديهم عن الجزاء ، لكان جديرا من الأحياء بالجزاء الحسن والثناء الجميل

فى هذه الصفحات ، صفحات أخيرة من كل سيرة .. وفى هذه السير شىء عن العباقرة والأئمة والزعماء .. وكلّهم شموس سطعوا فى سماء الحياة ، وكان منهم النور والدفء ، والهداية والرعاية ، والقوة والنهضة والرشاد والسداد

وقد بدأ الكتاب بفصل من الطبقة العالية متسائلا : « لماذا نخاف الموت ؟ » وكان من الحق أن يسأل هذا السؤال ، اذا كان الموت كله طريقا للخلود ، وبابا يطرقه أولئك الخالدون

لماذا نخاف الموت ؟.. سؤال قد أجاب عنه أناس ميتون ، وان لم يكونوا ميتين ، يوم تركوا لنا جوابهم المحفوظ فى سجل الخالدين

يقول الشاعر سفوكليس :

— ليس الموت أسوأ شرور الحياة ، فشرٌّ من الموت أن نتمناه ولا نلقاه !

ويقول الخطيب شيشرون :

— لا أريد أن أموت .. ولكنى لا أبالى أن أموت

ويقول الفيلسوف طاليس :

— لا فرق بين الحياة والموت !..

فقيل له :

— ولماذا تحيا ؟..

فقال : « لأنه لا فرق بين الموت والحياة .. ! »

وغير هؤلاء قالوا غير هذا المقال ، فشاعرنا أبو الطيب يقول :

واذا الشيخ قال أفّ فما ملّ حياة ، وانما الضعف ملاّ

ولكنه يقول أيضا :

الف هـذا الهواء أوقع فى الأنفس

ان الحمـــــــــام مر المذاق

والأسى قبـل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعـد الفراق

والضرير البصير شـاعر اليونان الكبير ، يقول على لسـان بطل من أبطاله : « لخير لى أن أعيش عبدا لأفقر الفقراء ، من أن أموت ملكا على أشباح الظلماء » .. ولكنه عاش ليصوغ آيات الثناء لمن آثروا ميتة الأبطال على عيشة الجبناء ..!

أما الذى نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها ، وانما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه فى موقف الصراع بين الغريزة والضمير ، فان الخضوع له فى هذه الحالة ضعف ، والضعف شر من الموت

***

والأستاذ طاهر الطناحى يروى عن الفيلسوف الفرنسى شارل رينوفييه تعليله لخوف الموت حيث يقول : « ان الانسان عندما يكون شيخا ، وقد اعتاد الحياة ، يصعب عليه كثيرا أن يموت ، وان الشـبان كما يرى أكثر خضوعا للموت من الشيوخ » .. كأنه يريد أن يقول ان الشبان لم تطل بهم عادة الحياة فلم يألفوها كما ألفها الشيوخ ، ولو طالت بهم لخافوا فراقها ، وخذلتهم الشجاعة عند شعورهم بالخطر عليها ..

أما الواقع كما نراه ، فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف ، والخوف أقرب الى طبيعة الضعفاء .. ولا فرق فى هذه الخلة بين الشيخ

والفتى اذا تشابها فى الضعف أو تشابها فى قلة الثقة بالحياة ..

فالمحنة كلها انما هى محنة الضعف أمام الموت ، ولا فرق بين الضعف أمام الموت والضعف أمام الحياة ، فان الحى الضعيف يهاب فى حياته أمورا كثيرة قبل أن يهاب الموت الذى يسلبه تلك الحياة ..

وأسلوب القرآن الحكيم خير الأساليب فى التعريف بموضع المذمة من حب الحياة أو كراهة الموت .. فلا ملامة فى أن يحرص الانسان على الحياة ، فلا يلقى بيديه الى التهلكة .. وانما الملامة أن يكون « أحرص الناس على حياة » .. أى حياة وكل حياة ، وبغير تفرقة بين أرفع حياة وأسفل حياة !..

***

ولكن لا ملامة على الاطلاق فى حب الحياة كما نريدها ، وبالشروط التى نرضاها ، فتلك هى القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء ..

ولست أحسب ان أحدا يهوّن على النفوس حب وجوده الا وهو مغالط فى كلامه ، اذا كان الوجود قد انقاد له بما نرتضيه نحن من شروطه ومحاسنه . ولست أذكر أن قلما جرى فى تهوين خوف الموت بأبلغ من كلام الأديب الكبير ، وليام هازليت حيث يقول : « لعل العلاج الأمثل لخوف الموت أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية ، وانه كان بالأمس زمن لم نكن فيه .. فلماذا يشغلنا اذن أن يجىء زمن لا نكون فيه ؟ »

الى أن يقول : « ما أجد فى نفسى رغبة اننى كنت حيا على عهد الملكة آن قبل مائة سنة ، فما بالى أهتم بأن أكون حيا بعد مائة سنة فى عهد من لا أدرى ما اسمه من الملوك أو الملكات ؟ »

فهذا كلام بليغ فى الأسلوب الخطابى الذى يقوم على التزويق ، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب ، فان الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده لأننى لم أكن موجودا فيه ، وبين مستقبل سأفقده لأننى وجدت فى الحاضر ، ثم انقطع بى الوجود قبل الوصول اليه .. فليس فى هذه البلاغة اقناع ، بل فيها تلطيف للواقع ومحاولة للعزاء حيث تحتاج الى العزاء

غير أننا لا نحتاج الى المغالطة ، ولا البلاغة الخطابية ، حين نفرق بين الحياة وبين كل حياة وأى حياة .. فمن يقبل الحياة بشروطه لا حاجة به الى مقنع يقنعه بأن الموت خير من الحياة التى تنعدم فيها هذه الشروط .. ومن يقبل كل حياة ، ويحرص على أى حياة لن تجديه بلاغة ، ولن تجوز عليه مغالطة فى خوفه من الموت ، كيفما كان ، وفى تشبثه بالحياة كيفما تكون

ولعلى أنصف الحياة نفسها ، اذا قلت ان خوف الموت ذو فضل عظيم على الأحياء ، وانه كما قال أبو العلاء :

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله
وعلم نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

فلا ضير أن نتقى الموت فنحيا كما ينبغى أن نحيا ، وانما الضير أن تغلبنا هذه التقية فنحيا كما لا تنبغى حياة

***

وقد اشتمل كتاب « الساعات الأخيرة » لمؤلفه الأديب المؤرخ الأستاذ طاهر الطناحى على عشرين سيرة .. ليس منها ما هو أشد اختلافا فى النشأة والتربية والمذهب والثقافة والخصال الشخصية من السيد توفيق البكرى ، والآنسة مى زيادة رحمهما الله ، ولكنهما مع هذا هما الوحيدان اللذان انتهت حياتهما بمأساة نفسية أو عقلية واحدة ، ووقفت فيما أعتقد على السبب المباشر لهذه المأساة ..

أصيب كلاهما فى أخريات أيامه بوسواس الاضطهاد ، ونزل كلاهما زمنا بمستشفى العصفورية فى لبنان ، وبدأت المأساة عندهما بصدمة مزعجة سبقتها صدمات ، ثم استحكمت جميعها حتى استعصى فيها العلاج

***

أذكر أيام اشتغالى بتحرير صحيفة « الدستور » حوالى سنة ١٩٠٨ أن السيد توفيق البكرى ذهب الى ميدان القلعة فى الاحتفال بالمحمل ،

ولم يخرج أتباعه من أصحاب الطرق الصوفية للاشتراك فى ذلك الاحتفال .. وكانت بينه وبين الخديو عباس الثانى جفوة شديدة فى ذلك الحين ، فاعتقد الخديو أن السيد تعمد منع الطرق الصوفية فى ذلك اليوم اخلالا بتقاليد الموكب التى جرى العمل عليها مئات السنين ، وسأله فى غضب : « لم لا أرى هنا مواكب الطرق الصوفية ؟ » فقال السيد ما معناه انه منعها لأنه قد حان الأوان للتخلص من هذه البدع .. فانتهره الخديو وخاطبه بكلمة قاسية ، ردها السيد بما هو أقسى منها على مسمع من جميع الحاضرين .. وترك المكان غير مستأذن ، وهو يردد كلمته فى شىء كثير من الاضطراب

أذكر بعد ذلك ان صحيفة « الدستور » كتبت تؤيد السيد فى موقفه من بدعة الاشارات والمواكب ، فأرسل السيد مبلغا من المال باسم الاشتراك فى الصحيفة ، ولكنه أكبر من قيمة الاشتراك فيها ، فأبى العالم الفاضل المرحوم الاستاذ محمد فريد وجدى صاحب « الدستور » أن يقبله ، وأعاده الى السيد بعد خصم القيمة السنوية المكتوبة فى رأس الصحيفة . وشاع فى السنوات التالية أن السيد — رحمه الله — قد ساوره الوسواس ، وأخذ يسأل كل من يلقاه عما يراد به ويدبر له فى الخفاء .. ثم تفاقم الداء حتى غطى على تلك الألمعية النيرة ، فقضت بدائها الأليم بعد عشرين سنة ونيف .. !

***

تلك مأساة السيد توفيق .. أما مأساة الآنسة مى ، فقد بدأت قبيل سنة ١٩٣٠ ، ولم تزل كامنة تتفاقم فى الخفاء حتى ظهرت بعد ذلك بسنوات ..

أذكر انها عادت من ايطاليا فى صيف احدى السنين ، وذهبت أسلم عليها بعد عودتها ، فجرى الحديث عن موسولينى وهى تعلم رأيى فيه ، ورأيى فى جميع الحاكمين بأمرهم .. فقالت لى فى اضطراب ظاهر : « لقد أضجرونا بأحاديثهم عن الدولة الرومانية ومجد الدولة الرومانية ، وتجديد

الدولة الرومانيـــة ... أليست دولتهم الرومانية هـــذه هى التى طاردت السيد المســـيح ، وأسلمته الى أعدائه ؟.. لقد قلت لهم هـــذا فى عاصمة الدولة الرومانية .. نعم قلته لهم وليكن ما يكون »

قلت : « وماذا عسى أن يكون ؟.. لاشىء ! »

نعم لاشىء كان ينبغى أن يكون من جراء هـــذا الحديث ، ولكنه قد كانت منه أشياء بعد ذلك لأنه اقترن بالحالات التى تتفاقم من جرائها أمثال هـــذه الصدمات ، فلم نلبث فترة من الزمن حتى سمعنا الآنسة تعيـــده متوجسة مضطربة ، وتسألنا : ألم نعلم أن الدوتشى يتعقبها ويريد أن ينتزعها حية أو ميتة ؟.. أليس صحيحا انهم قرروا فى ايطاليا اجراء بعض التجارب العقلية والجسدية للاستعانة بها فى أعمال التعذيب والاكراه على الاعتراف ، وانهـــا هى احـــدى الفرائس التى يقصـــدونها بالتجربة على التخصيص ..

***

حادثان مشابهان قد انتهيا بنتيجة واحدة ، ولكن كل حادث منهما يقع فى كل يوم لمئات من الناس ، ولا ينتهى بمثل تلك النهاية ، ولا بما يقاربها.. فمثل هذا الحادث لن يكون وحده سببا لوسواس الاضطهاد ، ولا سببا لاستعصاء ذلك الداء الأليم ، وانما يكون الحادث سببا مباشرا لاظهـــار أعراضه الكامنة وتفاقم شرورها وعقابيلها ، اذا أحاطت به صدمات نفسية متعددة .. ولا ســـيما اذا تجمعت تلك الصـــدمات فى السن التى يسميها الأطباء بسن الحرج ، ويسميها الفقهاء بسن اليأس فى بعض الأحيـــان climactric هذه السن تبدأ عند المرأة فى نحوالخامسة والاربعين ، وتتأخر قليلا عند الرجال فلا تبدأ عند الكثيرين منهم قبل الستين ، وقد تبكر فتبدأ فى الاربعين ..

وهذه السن ، فى أحد جوانبها ، هى انقضاء وظيفة مهمة من وظائف البنية الحية ، ولكنها من الجانب الآخر مرحلة جديدة فى الحياة الانسانية

يصحبها أحيانا صفاء فى العقل ، وسكينة فى النفس ، وقدرة خالصة على فهم الحياة بمعزل عن الأهواء ..

والمعول فى التفرقة بين الطورين ، على الحالة التى تصاحب سن الحرج .. فان أدركت انسانا وهو عامر النفس بالعطف والحنان ، مملوء الذهن بالشواغل التى توافقه وترضيه ، فذلك خير وراحة ، وان هى أدركته وهو منقطع عن العطف ، معرض للقلق ، مستسلم للهواجس .. فذلك هو الخطر الذى تخاف عقباه

***

فى حالة السيد توفيق جاءته الصدمة فى ابان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس .. جاوز الثلاثين منهوك الاعصاب مهدود البنية ، وألقاه مركزه الاجتماعى بمعترك الأزمات السياسية بين مصر ولندن والآستانة ، وحدث أن زائرا من أصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة فى باب من الغزل المحظور ، ووصلت هذه القصيدة الى المعتمد البريطانى فأغلق أمامه الأبواب فى قصر الدوبارة ، كما أغلق الخديو دونه أبواب عابدين .. وسبق الى ظنه أنه مهدد فى منصبه وسمعته ، بغير اطمئنان الى الحماية من أحد ، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الأمير ، خالطه الخوف من كل جانب ، وتوهم انه مقتول أو مسموم أو مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة ، ثم انقلبت أزمة السن أو أزمة الحرج الى داء عضال !

***

أما الآنسة مى ، فقد لحق بها خوف الاضطهاد ، وهى معرضة له مستهدفة لوسواسه وأوهامه منذ زمن ليس بالقصير .. وكانت قد بقيت وحيدة فى معيشتها بعد فقد أبيها ثم فقد أمها ، وبعد خيبة رجاء فى الحياة البيتية لم تكن تبديها ، ولم تكن مع ذلك قادرة على اهمالها . وأطبقت النكبات عليها ، وهى فى هذه العزلة ، بادعاء المدّعين وطمع المتقاضين .. فجاء اليها بعضهم — كما قال الاستاذ طاهر الطناحى — يطالبها بثلثمائة جنيه ، لأن أرضه مرهونة ، فلما طلبت أن تطلع على وثيقة الرهن أطلعوها

وضيقوا عليها فى الطلب ، وهى فى شكواها وضيقتها لا تصرح لأحد بما يثير فى نفسها هذه الآلام ..

ومن بلاء هذا الداء ــ داء الاضطهــاد ــ ان الاقناع فيه متعــذر أو مستحيل ، فاذا حاولت أن تنزعه من صاحبه سرى الشك اليه فى اخلاصك واتهمك بأنك من المؤتمرين به والعاملين على انفاذ الدسيسة فيه واجازة الغفلة عليه . وقد وقعت فى هذا الخطأ مرة ، وأنا أحسب ان الأمر أوضح من أن يقبل اللبس والخفاء ، فزرت الآنسة « مى » ورأيتها ترتجف وهى تفتح الباب ، وتشير الى المسكن الذى أمامها وتضع أصــبعها على فمها تحذرنى من الظلام . قالت : « ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النور ؟ انها خالية خاوية فلماذا ينيرونها فى هذه الساعة ؟ .. » فاتجهت الى تلك الحجرات وسألت عاملا وجدته عند بابها ، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم فى اليوم التالى ، وهو أول الشهر وأول تاريخ الايجار .. فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أننى أخفى عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين .. !

ووقع مثل هذا الخطأ مع السيد البكرى بدار الكتب المصرية ، فرأيت الشاعر أحمد نسيم يكلم السيد ، والسيد يتلفت حواليه . قال السيد : « ان الخديو يأتمر بى ، ويلاحقنى الى هنا ، ويرصد لى هــذا وذاك » وأشار الى بعض الجالسين فى حجرة المطالعة ... فقال نسيم : « ان أيام الخديو عباس قد انتهت ، فلا خوف منه عليك »

فانتفض فزعا وهو يتراجع ولا يرفع نظره عن محدثه ، وقال لى نسيم انه كان يلقاه بعد ذلك فيدير عنه بصره ولا يسلم عليه ..

رأسان لامعان ، سرى منهما النور ، وسرت اليهما النار .. واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء ، وقد سلما من الاضطهاد حقا ، ولم يسلما منه ظنا ووهما .. كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق أو بالباطل لكل عقل منير